

الحروب الصليبية
كما رآها العرب

أحمد معلوف

الحروب الصليبية كما رآها العرب

ترجمة:

د. عفيف مشقة

الكتاب: الحروب الصليبية كما رآها العرب

المؤلف: أمين معلوف

الترجمة: د. عفيف دمشقية

تصميم الغلاف: فارس غصوب

الطبعة الأولى: ١٩٨٩

الطبعة الثانية: ١٩٩٨

الناشر: دار الفارابي - بيروت - لبنان

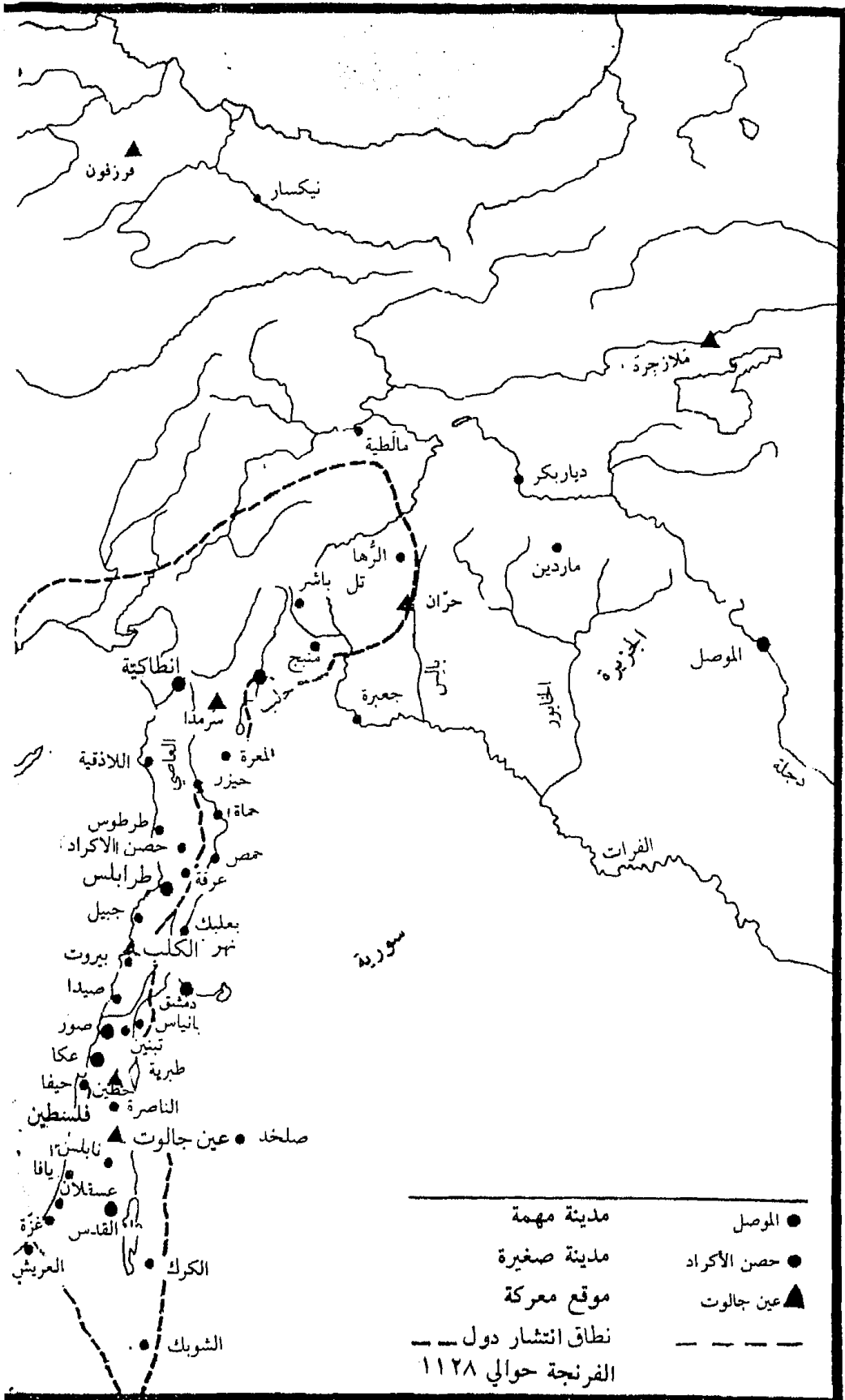
ت: ١٤٦١ / ٣٠ / ٠١ - فاكس: ٣٠٧٧٧٥

ص.ب. ١١ / ٣١٨١

جميع الحقوق محفوظة للناشر

في لبنان وجميع البلدان العربية

الى اندريه



موزفون

نيكسار

ملازجيرة

مالطية

ديار بكر

ماردين

الرّها

تل باشير

حرّان

منبج

جعبرة

انطاكية

سرمدا

المعرة

حيزر

حاة

اللاذقية

طرطوس

حصن الأكراد

طرابلس

جبيل

بيروت

صيدا

دمشق

بانياس

صور

عكا

طبرية

الناصرة

عين جالوت

القدس

عزة

العريش

الكرك

الشوك

ملازجيرة

الفرات

الجزيرة

الخابور

الفرات

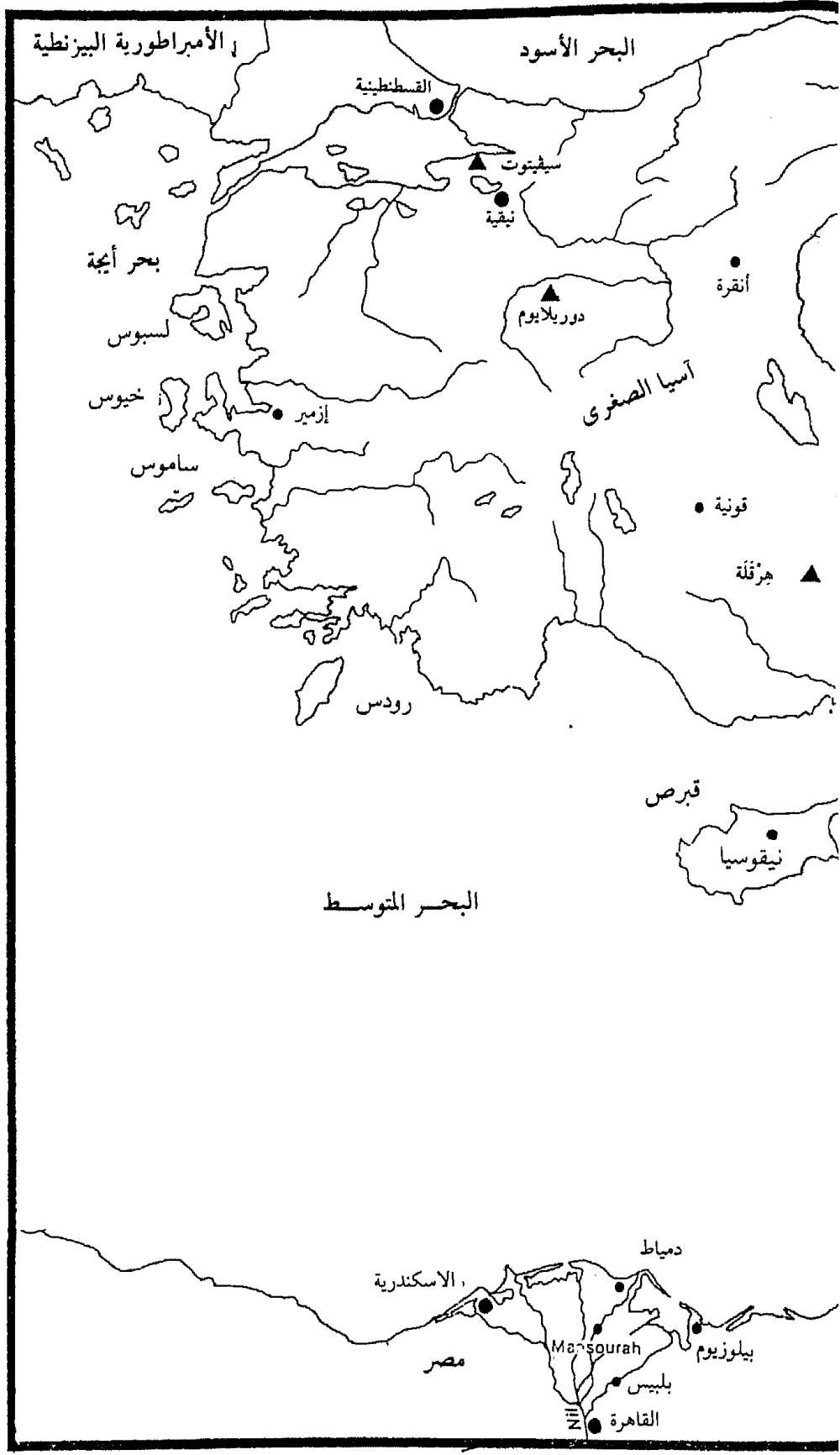
الفرات

الفرات

الفرات

الفرات

الفرات



توطئة

ينطلق هذا الكتاب من فكرة بسيطة: سرد قصة الحروب الصليبية كما نظر إليها وعاشها وروى تفاصيلها في «العسكر الآخر»، أي في الجانب العربي. ويعتمد محتواه بشكلٍ حصريٍّ تقريباً على شهادات المؤرخين والاختباريين العرب في تلك الحقبة.

ولا يتحدث هؤلاء عن حروب صليبية بل عن حروب أو غزوات إفرنجية. وقد كُتبت الكلمة التي تدلّ على الإفرنج بأشكال مختلفة باختلاف المناطق والمؤلفين والأزمنة: فرنج، فرنجة، إفرنج، إفرنجة... واخترنا طلباً للتوحيد أكثر الأشكال اختصاراً، أي الشكل الذي لا يزال مستخدماً حتى اليوم في المحكيّة الشعبية لتسمية «الغربيين»، وبصورة أخصّ «الفرنسيين»: «فرنج».

وحرصاً على عدم إثقال العرض بالحواشي الكثيرة التي تفرض نفسها - الإحالات على الكتب والمراجع التاريخية وغيرها - فقد آثرنا الاحتفاظ بها إلى آخر الكتاب حيث صُنّفت تبعاً للفصول. وسوف يقرأها الراغبون في مزيد من المعرفة فتعود عليهم بالفائدة، ولكنها ليست ضرورية أبداً لفهم العرض الذي يطمح إلى أن يكون في متناول الجميع. والحق أن ما أردنا أن نقدمه ليس كتاب تاريخ آخر بقدر ما هو، انطلاقاً من وجهة نظر أهملت حتى الآن، «رواية حقيقية» عن الحروب الصليبية وعن هذين القرنين المضطربين اللذين صنعا الغرب والعالم العربي ولا يزالان يجددان حتى اليوم علاقاتهما.

تمهيد

بغداد، آب/أغسطس ١٠٩٩م.

دخل القاضي أبو سعد الهروي ديوان الخليفة المستظهر بالله الفسيح صائحاً حاسراً حليق الرأس علامة على الحداد، وفي أثره حشد من الرفاق شباناً وشيباً يصدقون بصخب على كل كلمة من كلماته ويبدون مثله للعيان منظراً يشوبه التحدي: لحية كثة تحت رأس حاسر أملس. ويحاول بعض وجهاء البلاد تهدئته ولكنه يُزيجهم بحركة تنم عن ازدياد ويتقدم بعزم وتصميم إلى وسط القاعة فيأخذ في تبكيت الحاضرين من غير اكتراث مناصبهم بكلام لاذع كالذي يستخدمه الواعظ على المنبر:

- أتجرؤون على التهويم في ظل أمن رغد وعيش ناعم شأن زهرة في خميلة وإخوانكم في الشام لا مأوى لهم سوى ظهور الجمال وبطون النسور والعقبان؟ كم من دماء سُفكت! وكم من نساء أخفين وجوههن بأيديهن حياءً وخجلاً! أيرضى العرب البواسل بالمهانة ويقبل الأعاجم الشجعان بالذل؟! (١).

(١) وردت هذه الأقوال على لسان الشاعر أبي المظفر الأبيوردي من قصيدة عدد آياتها اثنان وعشرون بيتاً، وهي مثبتة في كتاب «الكامل في التاريخ» لابن الأثير، ج ٨، ص ١٨٩/١٩٠، طبعة دار الكتاب العربي - بيروت/لبنان - الطبعة الثالثة، ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠ م. ومن آياتها:

أتهويم في ظلّ أمنٍ وغبطةٍ وعيش لنوار الخميعة ناعم؟
وإخوانكم بالشام يُضحى مقيلاًهم ظهور المذاكي أو بطون القشاعم.

ويقول الأخباريون العرب: «وكان خطاباً أبكى العيون وحرك القلوب»^(١). وانتاب الحضور جميعاً نشيجٌ ونحيب، ولكن الهروي لا يريد شيئاً من دموعهم فيقول لهم:

- إن أسوأ ما يلجأ إليه المرء من سلاح أن يسكب الدمع. بينما تُذكي السيوفُ نارَ الحرب.

وإذا كان قد سافر من دمشق إلى بغداد طوال ثلاثة أسابيع من أيام الصيف تحت أشعة الشمس المحرقة فما كان ذلك لاستدرار الشفقة، وإنما لإخطار أرفع السلطات الإسلامية بالمصيبة التي حاقت بالمؤمنين والطلب إليها أن تتدخل بلا إبطاء لوقف المجزرة. وردّ الهروي قائلاً: «لم يسبق قطّ أن أُذِلَّ المسلمون هذا الإذلال ولا أن نهبت بلادهم بمثل هذه الوحشية». لقد كان كل من معه من رجال قد فرّوا من المدن التي نهبها الغازي؛ وكان بعضهم من القلّة القليلة الناجية من أهل بيت المقدس. وقد اصطحبهم ليتيح لهم أن ينقلوا بأنفسهم وقائع المأساة التي عاشوا فصولها قبل شهر.

والحقيقة أن الفرنج كانوا قد استولوا على المدينة المقدّسة يوم الجمعة في ٢٢ من شهر شعبان من عام ٤٩٢ هـ (١٥ تموز/يوليه ١٠٩٩ م) بعد حصار دام أربعين يوماً. ولا يزال النازحون يرتجفون كلما تحدّثوا بذلك وتجمد أبصارهم وكأنهم لا يزالون يرون بأعينهم أولئك المقاتلين الشقر المدرّعين المعتمرين الخوذة وقد انتشروا في الشوارع شاهرين سيوفهم، ذابحين الرجال والنساء والأطفال، ناهين البيوت، مخربين المساجد.

= وكم من دماءٍ قد أبيضت ومن دُمى تُوارى حياءً حُسْنَهَا بالمعاصمِ
أترضى صنديدُ الأعاريب بالأذى ويُفضي على ذلِّ كمْساءِ الأعاجمِ؟
(المترجم)

(١) عبارة ابن الأثير هي: «وورد المستنفرون من الشام في رمضان إلى بغداد صحبة القاضي أبي سعد الهروي فأوردوا في الديوان كلاماً أبكى العيون وأوجع القلوب». (الكامل، ج ٨، ص ١٨٩) (المترجم)

وعندما توقفت المذبحة بعد يومين لم يكن قد بقي مسلم واحد داخل الأسوار. فقد انتهب بعضهم فرصة الهرج فانسأوا إلى الخارج من الأبواب التي كان المحاصرون قد خلعوها. وأما الآخرون فكانوا مطروحين بالآلاف في مناقع الدم عند أعتاب مساكنهم أو بجوار المساجد، وكان بينهم عدد كبير من الأئمة والعلماء والزهاد المتصوفين الذين كانوا قد غادروا بلادهم وجاءوا يقضون بقية أيامهم في عزلة ورعة في هذه الأماكن المقدسة. ولقد أكره من بقوا على قيد الحياة على القيام بأشق الأعمال: أن يحملوا جثث ذويهم فوق ظهورهم ويكذبوها بلا قبور في الأراضي البور ثم يحرقوها قبل أن يُذبحوا بدورهم أو يباعوا في أسواق النخاسة.

وكان مصير يهود القدس بمثل فظاعة مصير المسلمين. ففي الساعات الأولى من المعركة اشترك عدد كبير منهم في الدفاع عن حيهم، الحي اليهودي القائم شمالي المدينة. ولكن عندما انهارت بقية السور المشرف على منازلهم وأخذ الفرسان الشقر يجتاحون الشوارع جن جنون اليهود واجتمعت الطائفة بأسرها للصلاة في الكنيس الرئيسي محتذية بذلك حذو جدودها في أوقات المحن. وعندها سدّ الفرنج جميع المنافذ وكذبوا أكوام الحطب حول المكان وأضرموا فيها النار. ولقد أجهز على الذين حاولوا الخروج إلى الأزقة المجاورة واحترق الباقون أحياء.

وبعد أيام على النكبة وصل أول اللاجئين من فلسطين إلى دمشق حاملين بعناية فائقة المصحف العثماني، أحد أقدم نسخ الكتاب المبين. واقترب الناجون من أهل القدس بدورهم من عاصمة الشام، وإذ لمحووا من بعيد مآذن المسجد الأموي الثلاث التي لاحت فوق الحرم المربع بسطوا سجاجيد الصلاة وسجدوا شكراً للعليّ القدير الذي أطال أعمارهم وقد ظنوا أنها بلغت آجالها. واستقبل أبو سعد الهروي بوصفه قاضي قضاة دمشق اللاجئين بحفاوة بالغة. وكان هذا القاضي، وهو من أصل أفغاني، أكثر شخصيات المدينة تتمعاً بالاجلال والاحترام؛ وقد بذل

للفلسطينيين النصيح والعزاء، فما كان ينبغي في رأيه أن ينجل المسلم من الفرار من منزله. ألم يكن النبي محمد نفسه أول مهاجر في الإسلام إذ اضطرَّ إلى ترك مسقط رأسه مكة التي ناصبه أهلها العداء واللجوء إلى المدينة المنورة التي تقبل أهلها الدين الجديد أحسن قبول؟ ألم ينطلق من مهجره هذا للجهاد من أجل تحرير موطنه من الوثنية؟ وعلى المهاجرين أن يعلموا علم اليقين أنهم خير المجاهدين، وأن الإسلام أكرمهم بجعله هجرة الرسول مبدأ العصر الإسلامي.

حتى إن الهجرة في رأي كثير من المسلمين فرض واجب في حال الاحتلال. ولسوف يهول الرحالة العربي الأندلسي الكبير ابن جبير الذي زار فلسطين بعد حوالي قرن من الزمن على بدء الغزو الفرنجي أن يرى بعض المسلمين ممن «استهواهم حبّ الوطن»^(١) وقد قبلوا العيش في البلاد المحتلة. ولسوف يقول: «وليست له [أي المسلم] عند الله معذرة في حلول بلدة من بلاد الكفر إلا مجتازاً. وهو يجد مندوحة في بلاد المسلمين لمشقات وأهوال يعانيتها في بلادهم [أي الكافرين] (. . .) ومنها سماع ما يفجع الأفتدة من ذكر من قدّس الله سرّه وأعلى خطره [أي النبي] لا سيما من أراذلهم وأسافلهم، ومنها عدم الطهارة والتصرّف بين الخنازير وجميع المحرّمات (. . .) فالحذر الحذر من دخول بلادهم. والله تعالى المسؤول حسن الإقالة والمغفرة من هذه الخطيئة (. . .) ومن الفجائع التي يعانيتها من حلّ بلادهم [أي الكافرين] أسرى المسلمين يرسفون في القيود ويُصرّفون في الخدمة الشاقّة تصريف العبيد، والأسيرات المسلمات كذلك في أسواقهنّ خلاخيل الحديد فتتفطر لهم الأفتدة ولا يغني الإشفاق عنهم شيئاً»^(٢).

(١) و(٢) نقلنا النص الذي أثبتته المؤلف في كتابه بالفرنسية عن النص العربي من «رحلة ابن جبير» طبعة دار الكتاب اللبناني ودار الكتاب المصري، بلا تاريخ، ص ٢١٤ (المترجم)

وإذا كان في أقوال ابن جبير غلوّ من الوجهة العقديّة فإنها تعكس على كل حال تصرّف أولئك الألوّف من النازحين من فلسطين وشمالى سوريا وقد تجمّعوا في دمشق في ذلك الشهر (تموز/يولية) من عام ١٠٩٩ م. إذ إنهم، وإن انفطرت قلوبهم بالطبع لتركهم منازلهم، مصمّمون على عدم العودة إلى ديارهم قبل رحيل المحتلّ إلى غير رجعة، وعلى إيقاظ ضمائر إخوتهم في جميع بلاد المسلمين.

وإن لم يكن كذلك فلماذا جاءوا إلى بغداد بقيادة الهروي؟ أليس على المسلمين أن يقصدوا إلى الخليفة، خليفة النبي، في الساعات العصيبة؟ أليس عليهم أن يرفعوا شكواهم وظلامتهم إلى أمير المؤمنين؟

ولسوف تكون خيبة النازحين في بغداد بقدر ما كانت آمالهم. فقد أخذ الخليفة المستظهر بالله يعبرّ لهم عن أعمق تعاطفه معهم وأبلغ عطفه عليهم قبل أن يكلف ستة من أصحاب المناصب الرفيعة في البلاط التحقيق في تلك الأحداث المفجعة. ترى هل ينبغي التأكيد بأن شيئاً لم يُسمع على الإطلاق عن لجنة الحكماء هذه؟

ولم يكن غزو بيت المقدس، وهو بداية حرب قديمة العهد بين ديار الإسلام والغرب، ليشير على الفور أية انتفاضة. وكان لا بد من الانتظار قرابة نصف قرن قبل أن يتحرك الشرق العربي لمواجهة المجتاح والاحتفاء بدعوة قاضي دمشق إلى الجهاد في ديوان الخليفة بوصفها أول عمل مشهود من أعمال المقاومة.

وقليلون هم العرب الذين سبروا على الفور في ابتداء الغزو هول الخطر الوافد من الغرب كما سبره الهروي. بل سرعان ما تكيف بعض الناس مع الوضع الجديد. ولم يكن همّ السواد الأعظم سوى البقاء على قيد الحياة مستسلمين لقدرهم وإن على مضض. واتخذ بعضهم موقف المراقب شبه الواعي محاولين فهم الأحداث التي كانت غير متوقّعة بقدر ما كانت جديدة. وأكثر هؤلاء إثارة وتشويقاً مؤرخ دمشق ابن القلانسي،

وهو شاب مستنير من أسرة وجيهة . ولقد كان رقيباً للأحوال منذ الساعة الأولى ، فعمره في سنة ١٠٩٦ م عندما وصل الفرنج إلى الشرق ثلاثة وعشرون عاماً ، وقد انصرف بانتظام إلى تقييد الأحداث التي كانت تبلغه ، وتاريخه يروي بأمانة ومن غير إفراط في الهوى مسيرة الغزاة كما شوهدت في مدينته .

وكانت بداية الحكاية بالنسبة إليه في تلك الأيام المفعمة بالكرب التي سرت فيها إلى دمشق أول الشائعات . . .

القسم الأول

الغزو (١٠٩٦ - ١١٠٠ م)

انظروا إلى الفرنج! انظروا بأية ضراوة يقاتلون في
سبيل دينهم في حين لا نبدي نحن المسلمين أية
حمية للجهاد في سبيل الله.

صلاح الدين

الفرنج قادمون

«في هذه السنة^(١) كان مبدأ تواصل الأخبار بظهور عساكر الافرنج من بحر القسطنطينية^(٢) في عالم لا يُحصى عدده كثرة. وتتابعت الأنباء بذلك فقلق الناس لسماعها وانزعجوا لاشتهارها. وصحت الأخبار بذاك عند الملك (داود بن) سليمان بن قتلمش^(٣) وكان أقرب إليهم داراً^(*).

لم يكن الملك قلعج أرسلان الذي يتحدث عنه ابن القلانسي هنا قد بلغ بعدُ السابعة عشرة من عمره عند قدوم الغزاة. ولسوف يكون هذا السلطان التركي الشاب ذو العينين المائلتين قليلاً، وهو أول قائد مسلم يبلغه خبر اقترابهم، أول من ينزل بهم هزيمة وأول من يدحره فرسانهم العتاة.

لقد علم قلعج أرسلان منذ تموز/يولية ١٠٩٦ م أن جمهوراً غفيراً من الفرنج في طريقه إلى القسطنطينية. ولم يلبث أن خشي أسوأ العواقب، فهو لا يعرف بالطبع الأهداف الحقيقية التي ينشدها هؤلاء القوم، ولكن قدومهم إلى الشرق لا يبشره بخير.

(*) نقلنا النص العربي من «ذيل تاريخ دمشق» لابن القلانسي، طبعة الآباء اليسوعيين، ص ١٣٤.

(١) سنة ٤٩٠ هـ. (المترجم)

(٢) بحر مرمرة في النص الفرنسي. (المترجم)

(٣) الملك قلعج أرسلان في النص الفرنسي. (المترجم)

كانت السلطنة التي يحكمها تمتدّ على جزء كبير من آسيا الصغرى، وهي أرض انتزعها التركمان حديثاً من الروم. والواقع أن سليلان أبا قليج أرسلان كان أول تركي استولى على هذه الأرض التي ستعرف بعد عدّة قرون باسم تركيا. ولقد بقيت الكنائس البيزنطية في نيقية عاصمة هذه الدولة الإسلامية الفتية أكثر عدداً من المساجد. وإذا كانت حامية المدينة تتألف من فرسان تركمان فإن غالبية الشعب هم من الروم. ولم تكن الأوهام لتساور لحظة أفكار قليج أرسلان بشأن مشاعر رعاياه الحقيقية: لسوف يبقى في نظرهم زعيم عصاة من البرابرة. والملك الوحيد الذي يعترفون به ويتردّد اسمه بصوت خافت في صلواتهم هو «ألكسي كومنين»^(١) امبراطور الروم. وألكسي هو بالحري امبراطور اليونانيين الذين يعتبرون أنفسهم ورثة الامبراطورية الرومانية. وهذه الصفة هي التي يعترف لهم العرب بها على أي حال - في القرن الحادي عشر (الميلادي) كما في القرن العشرين - إذ هم يُطلقون على اليونانيين اسم «الروم» أي «الرومان»، حتى إن الأرض التي غنمها أبوقليج أرسلان من الأمبراطورية اليونانية تُعرف باسم سلطنة الروم.

كان ألكسي في ذلك الحين أحد أكثر الوجوه إشراقاً في الشرق. وكان هذا الخمسيني القصير القامة، ذو العينين الناضحتين بالمكر، واللحية المشدّبة، والحركات الأنيقة، المحلّي على الدوام بالذهب والنسائج الزرقاء النفيسة، يثير في قليج أرسلان سحراً حقيقياً. فهو الذي يهيمن على القسطنطينية، بيزنطة الأسطورية، الواقعة على مسيرة أقلّ من ثلاثة أيام من نيقية. وإنه لجوار يهيج في نفس السلطان الشاب مشاعر متباينة. فهو يحلم، شأنه شأن كل المحاربين البدو، بالغزو والسلب، ولا يسوؤه أن يشعر بثروات بيزنطة الأسطورية في متناول يده. ولكنه يشعر في الوقت نفسه أنه مهتدّد. فهو يعلم أن ألكسي لم يفقد الأمل يوماً في استرجاع نيقية، لا لأن المدينة كانت على الدوام يونانية وحسب، وإنما على الأخصّ لأن

(١) يُعرف هذا القيصر في الكتب العربية باسم «ألكزياكس». (المترجم)